المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين نبينا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين، أما بعد:

فآثار الصحابة الكرام، وما بقي من أدبهم بألوانه المختلفة يمثل أنموذجاً عالياً اقترب من مصدر الوحي، وجاء في أزهى عصور الرقي اللغوي والأدبي، وصَدَر في وقتٍ حَمَلَ تحوّلاً فكرياً ودينياً عظيماً، ومع إغراء تلك العوامل للباحثين والنقاد إلا أنَّ اهتمامهم بأدب الصحابة عموماً، والنثر خصوصاً جاء أدنى من المأمول، ولم يسجل حضوراً يُوَازِي حضور الدراسات الأدبية والنقدية التي اتجهت إلى مآرب أُخرى، وعصور أبعد من هذا العصر .

والأجناس النثرية الوجيزة للصحابة –رضوان الله عنهم- بَقِيَت مبعثرة في مدونات الأدب القديمة، وانتقاؤها وتداولها عبر تلك الكتب لم يحرِّك إحساساً لطالبي بَعْثِ النماذج الرصينة من النصوص الأدبية التي تَحْمِلُ قيماً خلقية راقية، مع أسلوب أدبي جميل.

ولا ريب أنَّ كتاب "البيان والتبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت 255هـ يأتي في ذروة سنام الكتب الأدبية المهمة، المتضمِّن حشداً من أرقى صور البيان والبلاغة، ونماذج يأوي إليها متذوقو الأدب الرصين، ولفت انتباهي عند قراءاتي المتعددة لهذا الكتاب ما التقطه مؤلفه من أجناسٍ نثريةٍ وجيزة للصحابة الكرام –رضوان الله عنهم- جاءت ضمن محاورات قصيرة، أو على شكل أجوبةٍ مفحمةٍ، أو خطراتٍ شاردة ، أو حكمٍ كرَّرها الناس، فكانت تلك الظاهرة اللافتة منبهةً للبحث عن سمات تلك الأجناس الموضوعية والفنية التي أرغمت الجاحظ أن يجعلها قبلةً للأدباء، غير متناسٍ أن

حفظ الرواة لتلك الأقوال جاء على صورة أضبط من غيرها من نماذج الأدب حيث ارتباطه بجيل ذي سمة خاصة، ودارت على آثاره بعض الأحكام الشرعية المهمة.

إنَّ هذه المسوغات وغيرها دفعتني لمحاولةٍ علمية ترمي إلى الكشف عن أسباب انتقاء تلك النماذج، وقد اجتهدت -ما وسعني الجهد- في دراسة تلك الأسباب عبر المباحث الآتية :

أولاً- مقدمات مهمة :

- البيان والتبيين "ديوان الأقوال البليغة"
- أدب الصحابة النثري وغياب الدراسات الأدبية.

ثانياً- مفهوم الأجناس النثرية الوجيزة.

ثالثاً- من أسباب اختيار الجاحظ لأقوال الصحابة الوجيزة :

- مكانة منتج النص.
- القيم الدينية والأخلاقية .
- بروز بعض القيم الفنية :
  - الإيجاز والتكثيف.
  - الإيقاع والجرس.
  - التناص القرآني.
  - إيحاء الألفاظ.
  - الصور الموضِّحة.
- خاتمة.

وبعد : فهذا جهد المجتهد، فالتوفيق من الله، والتقصير من سمات البشر، وأرجو أن يكون لي أجر المجتهدين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أولاً– مقدمات مهمة :

أ– البيان والتبيين "ديوان الأقوال البليغة":

حَفَلَ كتاب "البيان والتبيين " لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت255هـ باهتمام النقاد والدارسين منذ العصور القديمة، وأضحى زاداً مهماً لدارسي الأدب، ومتذوقي النماذج الرفيعة للشعر والنثر، وعلى الرغم من أهمية كتب الجاحظ بجملتها التي يَسِمُها السيرافي ت 368هـ بأنها تُعلِّم العقل والأدب(1)، إلا أنَّ كتاب البيان والتبيين (هو أسير كتب أبي عثمان، وأعظمها نفعاً وعائدةً، فقد تتلمذ عليه خلقٌ كثيرون من الأدباء والنقاد وعلماء الإعجاز والكتَّاب، وأرباب الفصاحة والبلاغة والبيان ممن جاء بعده، فاستقامت أذواقهم وأقلامهم على الطريقة المثلى في الكتابة والتأليف ...)(2).

---

(1) انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار الكتب العلمية–بيروت، ط:1411هـ، : 492/4 ، ووفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق د.يوسف طويل، ود.مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية –بيروت : 415/3.

(2) المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، د.فوزي السيد عبدربه، مكتبة الأنجلو المصرية،2005م : 267.

وقد التقط مؤلفه بذوقه الرفيع، وتمرُّسه الطويل جملةً من الأبيات الشعرية، والفِقَر النثرية، التي أصبحت مقصداً لجلِّ الأدباء والنقاد، يَنهَلُون من اختياراته البارعة، ويتعلمون من تعليقاته الماتعة، وقد أدرك كبار النقاد عظمة مضمونه، فقال أبو هلال العسكري ت395هـ : (...وهو لعمري كثير الفوائد، جمُّ المنافع؛ لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفِقَر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبَّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المسْتَحْسَنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان، والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير)(1).

والمسعودي ت346هـ –وهو خصمٌ من خصوم الجاحظ – يُشيد بكتب الجاحظ عموماً، ويخص "البيان والتبيين" بمزيد إشادةٍ وتنويه، فيقول: «وكتب الجاحظ، مع انحرافه المشهور، تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنَّه نَظَمَهَا أحسن نظمٍ، ورَصَفَها أحسن رَصْفٍ، وكَسَاها من كلامه أجزل لفظٍ، وكان إذا تخوَّف مَلَلَ القارئ، وسآمة السَّامع، خَرَجَ من جدٍّ إلى هزلٍ، ومن حكمةٍ بليغةٍ إلى نادرةٍ طريفةٍ. وله كتب حِسَان، منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنَّه جمع فيه بَيْنَ المنثور والمنظوم، وغُرَر

---

(1) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية–بيروت، ط:2،1409هـ/1989م : 13.

الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتَصَر عليه مُقْتَصِرٌ عليه لاكتفى به... »(1).

وابن خلدون ت808هـ يجعل هذا الكتاب بما احتواه من نماذج أدبية منتقاة أصلاً من أصول الأدب، وأركانه الراسخة، يقول : (وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها، وفروعٌ عنها...)(2).

والمتمعن في اختيارات الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" يلحظ أنه يورد الأبيات الشعرية، والخطب الشهيرة، والوصايا، والفِقَر المستملحة، والألغاز وغيرها من ديوان الأدب العربي، إمَّا للاستشهاد بها على قضيةٍ تناولها، أو لإعجابه بمدلولها المنطوي على خلالٍ حميدة، وأخلاقٍ حسنة، مع رشاقة العبارة، وإيجازها، وانطوائها على صورة بديعة، وجرسٍ أدبي لافت، فاستحق هذا الديوان الأدبي أن يكون مصدراً يأوي إليه الأدباء لاستجلاب اختياراتهم، و الارتقاء بذائقتهم، واستطاع الجاحظ أن يحفظ للأجيال المتعاقبة ثروة أدبية بتأليف هذا الكتاب العظيم الذي حفظ نفائس من الأدب

---

(1) روج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، مكتبة الرياض الحديثة، ط:5، 1393هـ/1973م: 4/195-196.

(3) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتب العلمية-بيروت، ط:1، 413هـ/1993م:476.

الشعري والنثري، واستعان بتلك النماذج معظم الأدباء والنقاد عبر العصور المتعاقبة.

وأدب الصحابة أخذ حظوته في كتاب "البيان والتبيين" وانثالت نماذجه الشعرية والنثرية من خطبٍ، ووصايا، وحوارات، وحِكَم وغيرها مستشهداً بها الجاحظ في مواطن متفرقة من كتابه، ونالت اهتمامه حين أورد خطباً كاملة لعدد من الصحابة، كأبي بكر وعلي و عبدالله بن مسعود ومعاوية بن أبي سفيان –رضي الله عنهم أجمعين– وأورد رسالة عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري –رضي الله عنهما–في القضاء كاملة في الجزء الثاني(1)، وأورد بعض وصايا الخلفاء الراشدين إلى عُمَّالهم في الأمصار الإسلامية(2).

كما انتشى بشكل لافت حين توقف عند بلاغة المصطفى –صلى الله عليه وسلم– فقال: (وأنا ذاكرٌ بعد هذا فناً آخر من كلامه– صلى الله عليه وسلم– وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف ...ثم لم يَسْمَع الناس بكلام قطُّ أعمُّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أبين في فحوى من كلامه– صلى الله عليه وسلم)(3).

ولم يغب عن الجاحظ أن الصحابة الكرام –رضوان الله عنهم –قد استداروا على مائدة النبوة ينهلون من بلاغتها، ويَسْتَلِذُّون بفصاحتها، ويرضعون من

---

(1) انظر : البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق : عبدالسلام هارون، دار الجيل، د.ت :48/2.

(2) انظر: السابق:46/2.

(3) السابق:17/2.

جوامع الكلم فيها، وقد عاش جلُّهم في عهد الفصاحة والبيان حين كان العرب يفاخرون بالبلاغة والفصاحة، فكانت معجزة النبي –صلى الله عليه وسلم – من جنس إعجابهم، فنزل القرآن ببلاغة أعْجَزَت الفصحاء، وأذهلت البلغاء، فقال الوليد بن المغيرة في لحظة من لحظات رجوعه إلى الحق : (والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ عليه لَطَلاوة، وإنَّه لَيَعْلُو، وما يُعْلَى عليه)(1) ولا ريب أنَّ بلاغة القرآن وبيانه قد انغمست في نفوس الصحابة الكرام، وترددت على ألسنتهم آياته الكريمة، وانشغلوا بقراءته المتمعنة، وعدم تجاوز آيه إلا بعد تأملٍ وفهم (لقد كان القرآن الكريم وِرد الصحابة –رضي الله تعالى عنهم- الذي امتلأت به نفوسهم، وأُشربت حبه قلوبهم، فصقل التَّمرس به ترتيلاً وحفظاً أذواقهم بنظمه المعجِز، وأدائه المتميز ترغيباً وترهيباً وإرشاداً ووعظاً وتعليماً وتشريعاً...)(2) وقد كان الجاحظ مُدركاً لما تركه الكتاب الكريم من أثر واضح يَلْمَع في دَرجِ حديثهم، ويبزغ في آثارهم، فتغيَّا تلك الآثار، وكان اختيارها دليلاً على ذروة جمالها، وإلا لما انتقاها في كتاب قَصَدَ فيه إلى الحديث عن البلاغة والبيان، والبحث عن نماذج يُفنِّد بها مزاعم الشعوبية، والمفنِّد يروم البحث عن أعزِّ النماذج وأقومها؛ لإثبات مذهبه، وإبطال مزاعم خصمه.

وقد صرح الجاحظ في مقدمة الجزء الثاني برعايته لتلك النماذج، وعلوّ مضمونها وأسلوبها، فقال: (...ولكننا أحببنا أن نُصيِّر صدر هذا الباب

---

(1) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) :442/4.

(2) قدمة في راسة الأدب الإسلامي، د.مصطفى عليان، دار المنارة جدة، ط:1405،1 هـ/1995م : 115.

كلاماً من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والجلَّة التابعين، الذين كانوا مصابيح الظَّلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض، وحلى الدنيا، والنجوم التي لا يضل معها السَارِي، والمنَار الذي يرجع إليه البَاغِي، والحزب الذي كثَّر به القليل، وأعزَّ به الذليل، وزاد الكثير في عدده، والعزيز في ارتفاع قدره، وهم الذين جَلَوا بكلامهم الأبصار الكليلة، وشَحَذُوا بمنطقهم الأذهان العليلة، فنبَّهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها عن سوء عادتها، وشفوها من داء القسوة، وغباوة الغفلة، وداوَوا من العيِّ الفاضح، ونهجوا لنا الطريق الواضح...)⁽1⁾ .

وألفِتُ النَّظَرَ إلى أنَّ الجاحظ اعتمد في جملة مؤلفاته ورسائله على الأقوال الوجيزة بأشكالها المختلفة، وأدار عليها نظريته البيانية، ووجد فيها مادةً خصبةً يأْرِزُ إليها أهل البلاغة والفصاحة، وهذا ما صرَّح به أحد الدارسين حين قال: (...وليس من الغريب أن تحفل رسائل الجاحظ ومؤلفاته بالعبارات المثليَّة، والتراكيب الجاهزة، والأقوال المأثورة...فكانت المادة التي نَظَّرَ فيها، والمنطَلَق الذي انطلق منه، ولعلَّ القوانين التي انتهى إليها ...قد استخلصها من الأمثال والحكم والنوادر والألغاز، والأمثال الخرافية بالأساس، وسحبها على سائر الأجناس الأدبية، وجعلها قوانين وأصول تَحْكُمُ جميع الخطابات الجمالية في الثقافة العربية الإسلامية)⁽2⁾.

---

(1) البيان والتبيين : 2/5-6.

(2) الأجناس الوجيزة في النثر العربي،جميل بن علي، "رسالة دكتوراه غير منشورة" جامعة بنوبة التونسية 2004م-2005م :121.

لقد كان كتاب "البيان والتبيين" مَهْجَعَاً للأقوال البليغة، والعبارات الفصيحة التي بذل جهداً في تزيين كتابه بها، وكان لأدب الصحابة النثري نصيبٌ من تلك الاختيارات اللافتة المغرية بالبحث والاستقراء.

ب–أدب الصحابة النثري وغياب الدراسات الأدبية.

تَوَارَى أدب الصحابة النثري، وبالذات القطع النثرية الوجيزة من حكمٍ ووصايا وحوارات وأجوبةٍ مُفحمة وغيرها عن أنظار عددٍ كثيرٍ من الدارسين والباحثين في أدبنا العربي، ولَمَسَهَا بعضهم برفقٍ واضحٍ مع ما تختزنه تلك المقطعات النثرية من بلاغةٍ ارتبطت بعصر النبوة، وزمن الفصاحة والاستشهاد اللغوي، وارتكز الدرس والتحليل على جملةٍ من الخطب والوصايا والرسائل المتناقلة في المجاميع الأدبية المشهورة(1)، ونأى الدَّارسون بشكلٍ جليٍ عن أجناسٍ نثريةٍ وجيزة شعَّت أدبيتها، إمَّا لعسر تصنيفها، أو لتناثرها في كتب الأدب، وغياب جمعها وتوثيقها في مدونةٍ واحدة، اللهم ما كان من محاولات لأبي منصور الثعالبي ت 492هـ في كتابه " الإعجاز والإيجاز" حين خصَّ أقاويل الصحابة المشبهة للأمثال والحكم بباب سمَّاه: (فيما صدَرَ منها عن

---

(1) انظر على سبيل المثال :الخطابة في صدر الإسلام، د.محمد طاهر درويش، وتطور الأداء الخطابي ،د.مي يوسف خليف، والخطابة في عصرها الذهبي ، د.إحسان النص، وصور من النثر الفني في عصري صدر الإسلام وبني أمية، د.محمد مصطفى منصور ، والأدب الإسلامي وصلته بالحياة مع نماذج لصدر الإسلام ، للأستاذ محمد الرابع الندوي، ورسالة الماجستير للأستاذ علي بن دخيل الله العوفي المعنونة بـ (خطب الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم : توثيق نصوصها ودراسة أدبية لمحتواها وشكلها) وقد نوقشت الرسالة في الجامعة الإسلامية بتاريخ 1417/8/29هـ وغير ذلك ...

الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين)(1) وقد آنس أبو الحسن الندوي هذا الانصراف، فقال في مقدمة كتابه "نظرات في الأدب": (...وتناسى هؤلاء ما كتب غيرهم، وانصرف الناس حتى الباحثين منهم عن ذخائر الأدب العربي الثمينة، ولم يفكر أحدٌ في أن يبحث في التاريخ والسير والتراجم، وفي مؤلفات العلماء عن قطعٍ أدبيةٍ رائعة تتفوق في قوتها وحيويتها وسلاستها وسلامتها، وفي بلاغتها، وجمال لغتها على دواوين أدبية ومجاميع ورسائل أكبَّ عليها الناس، وافتنوا بها...)(2) ثم قال بعد حديثه عن تلك الثروة الأدبية المهملة : (...وهذه ثروةٌ أدبيةٌ زاخرةٌ تكاد تكون ضائعة، وقد جنى الإهمال على اللغة والأدب والإنشاء وعلى التأليف والتصنيف وعلى التفكير فحرمه مادةً غزيرةً من التعبير، وباعثاً قوياً للتفكير)(3).

وهذه الأجناس الوجيزة استوقفت الشيخ علي الطنطاوي –يرحمه الله- حينما كتب عن الخليفة عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- وأفرد عنواناً خاصاً لتلك الأقوال الوجيزة جعله تحت "كلمات عمر" أودعه مختارات من تلك الكلمات، وقد رَاعَهُ جمال أسلوبها، وعلو مضمونها، ونأيها عن التكلُّف، ودعا إلى دراستها، والالتفات إليها، وتعليمها للنشء، فقال : (أمَّا كلماته فإنَّها تستحق الدرس والبحث... وإذا كان نقَّاد الأدب لا يزالون

---

(1) انظر : الإعجاز والإيجاز،للثعالبي، دار صعب – بيروت، د.ت : 25.

(2) نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي، دار البشير–عمان، ط:1، 1411هـ/1990م :30.

(3) السابق :34.

يُعجبون بحكم المتنبي، ويرون فيها خلاصةً لتجارب الناس في عصره، فإنَّ حكم المتنبي لا يمكن أن تُذكر مع كلمات عمر، ولا تجري معها في الميدان.

إنَّ المتنبي لخَّص في حكمه تجارب الناس، وعمر وضع في كلماته الحكم للناس. إنَّ من كلماته ما كان دستوراً للحكم أو للقضاء أو للأخلاق، دستوراً كاملاً، ولكنه لم يجيء في مواد مطوّلة، ولم يكتب بلغة القوانين، بل جاء حكمةً سائرةً، ومثلاً مأثوراً، في لغةٍ هي في البيان غاية الغايات ...)(1).

وحين نُفَتِّشُ في مدونات الأدب القديمة نجد أنَّهم قد غَذَوا كتبهم بجملة من الحكم والمقاولات، والأجوبة المفحمة، والعبارات الذائعة للصحابة الكرام –رضوان الله عنهم- وساقوها مساق الإعجاب بما حوته من لغةٍ موجزةٍ، وأسلوبٍ أدبي راقٍ، مع ما تَكْتَنِزُه من مضامين مُوَجِّهَة، وهذا موقف يدلُّ على إعجابهم بها، وقد رصدت ذلك في كتبٍ عديدة لعلَّ من أبرزها كتاب "عيون الأخبار " لابن قتيبة ت 276هـ، و"العقد الفريد " لابن عبد ربه ت 328هـ، و "زهر الآداب وثمر الألباب" للحصري ت453هـ، و"المناقب والمثالب" للخوارزمي ت 430هـ و "الإعجاز والإيجاز" للثعالبي ت492هـ، كما هي منثورة في كتب الجاحظ، ومنها كتابه "البيان والتبيين" الذي تَعَامَدَت الاختيارات فيه على أفصح ما تلقَّاه، وأجمل ما سمعه في كتابٍ غايته البحثُ عن الفصاحة والبلاغة، وتناثرت في كتب الأدب الأخرى مقطعات نثرية للصحابة –رضوان الله عنهم-تكرَّر أغلبها كما هي عادة أغلب المدونات النثرية.

---

(1) أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، علي الطنطاوي، وناجي الطنطاوي ، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط: 1428هـ /2007م:279.

وإذا توجَّهتُ إلى كتب التاريخ والسير التي تحدَّثت عن الحقبة النبوية، وعصور الخلفاء الراشدين، ومن تلاهم فإنني أجدها تَمُوْرُ بتلك الأجناس التي تبعثرت في الحديث عن أحداث تلك الحقبة التأريخية، أو في طيات التراجم للصحابة –رضوان الله عنهم– والمتأمل في "تاريخ الأمم والملوك" للطبري ت310هـ و"البداية والنهاية" لابن كثير ت 774هـ، وكذا كتب تراجم الصحابة من مثل كتاب: "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" للقرطبي ت463هـ، وكتاب "أُسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير 639هـ، أقول :إن المتأمل يجد كنوزاً دفينة من تلك الأقاويل الوجيزة التي تحتاج إلى من يلتقطها بعنايةٍ وأناةٍ؛ لتكون من قلائد الأدب التي نعتز بها ونفاخر، ونُعلِّمُ بمضامينها السامية، وأساليبها المتميزة.

إنَّ أدب الصحابة النثري بقي غائراً في مدونات الأدب إلا من محاولات لا تتناسب مع مادته الغزيرة التي كانت أقرب إلى الحفظ والتدوين من النماذج النثرية الأخرى؛ إذا ارتبطت جملة نماذجه بتعاليم الدين،وآدابه، وأحكامه، وتلقاها الرواة باحترامٍ وتقديس، وخوفٍ من تبديل ألفاظها وعباراتها، فكانت جديرةً أن تحظى بمزيد عنايةٍ ودرايةٍ من قبل المهتمين.

وأخيراً لا بد أن أُشير إلى دائرة من العزوف أوسع، وهي العزوف عن دراسة النثر وأجناسه في أدبنا العربي، وهذا الانصراف أقلق عدداً من الباحثين والنقاد من أمثال الدكاترة زكي مبارك حين قال : (والنثر مهما احتفل أصحابه بإتقانه وتجويده، لم ينل من أنفس النُّقاد والدارسين منزلة الشعر، ولذلك قلَّت العناية بتقييد أوابده، والنص على ما فيه من ضروب الإبداع

والابتكار...)(1)، واستهلَّ الدكتور حسين نصار بحثه عن نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي بهذه الملحوظة، فقال: (ظلَّ النقاد والأدباء العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم يوجهون جلَّ عنايتهم -إن لم يكن كلها- إلى الشعر وحده مما جعل النثر غريباً على الكثير منا، لا يستطيع أن يتصوَّره التصوُّر الصحيح، أو المقارب للصحة...)(2) ومثل هذا الانصراف يستحثنا لتلمُّس ظواهر النثر في العصور المختلفة، ودراستها، وتقديم دراسات ذات جدوى في ميدان الأدب والنقد.

ثانياً- مفهوم الأجناس النثرية الوجيزة:

بقيت الأجناس النثرية الوجيزة، كالأمثال والحكم والأجوبة المسكتة، والتوقيعات، والنوادر وغيرها متواريةً -إذا ما قيست بغيرها- عن تناول النقاد والدارسين لأدبنا العربي عبر الزمن، ولم تأخذ حيزاً كبيراً من التأصيل والتدقيق في اصطلاحها، مع انثيال ألوانها المختلفة في مدونات الأدب العربي القديمة، وانحصرت جهود القدماء في جمع بعض صنوفها، ولملمة شتاته، كما في

---

(1) النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، المكتبة العصرية-بيروت، د.ت :17/1.

(2) نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، د.حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط:1: 1412هـ/2002م:7.

مدونات الأمثال التي تناقلها المصنفون، واتسم جمعها بالتكرار، والإعادة(1)، وكان نصيب الخطب والرسائل، ثم الوصايا أوفى من الفنون النثرية الأخرى .

وقد رأى النقاد في تلك الأجناس الوجيزة مادةً للمتكلم والكاتب يستعين بها في خطابته ورسائله، مع قربها إلى الحفظ والاستدعاء، ولم يتغيَّوا البحث العميق عن خصائصها الفنية، كما في الأجناس الأدبية الأخرى.

وانطوى الحديث عن تلك الأجناس في الثنائية الشهيرة ثنائية (الشعر والنثر) يقول قدامة بن جعفر ت327هـ : (...واعلم أن سائر العبارة في كلام العربي، إمَّا أن يكون منظوماً، وإما أن يكون منثوراً ,المنظوم هو الشعر والمنثور هو الكلام ...)(2).

ومع أنَّ العرب احتفوا بالإيجاز، وعابوا الإسهاب والتطويل، وجَعَلَ بعضهم حدَّ البلاغة في الإيجاز، إلا أنَّ عنايتهم اتجهت إلى استجلاب تلك المقطعات الوجيزة، والتلذُّذ بقدرة قائلها على إصابة كبد المضمون في ثوب من الأسلوب الأدبي الجميل، ولن تجد في القديم التفاتةً تستحق الذكر لدراسة مصطلح الأجناس النثرية الوجيزة، وإبراز خصائصها الفنية، وبقيت جهود المحدثين محصورة في وضع تعريفات لبعض تلك الأجناس تُطلُّ عليك في معجمات المصطلحات الأدبية والنقدية، مع استجلاب أُنموذجٍ أو اثنين للجنس الأدبي

---

(1) انظر على سبيل المثال: جمهرة الأمثال لأبي هلال للعسكري، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، للأصفهاني، والمستقصى في أمثال العرب للزمخشري ، ومجمع الأمثال للميداني، وغيرها...

(2) نقد النثر، قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط:1، 1979م:74.

المذكور، وقد حكى هذا الإهمال الدكتور محمود مقداد حين عرض لتلك الألوان الوجيزة، مع غيرها من الأجناس النثرية الأخرى(1).

وقد توقف الدكتور جميل بن علي في رسالته الموسومة بـ(الأجناس الوجيزة في النثر العربي القديم)كثيراً عند تحديد ماهية تلك الأجناس، والبحث الدقيق عن إشاراتٍ في القديم، أو الحديث تُحيل إلى تحديدها فقدَّم في أطروحته الرائدة مشروعاً لتجنيس تلك الألوان النثرية، لافتاً بمشروعه إلى تلك النماذج، والأصناف الأدبية الحقيقة بالعناية، والمغرِيَة بالدراسة، مع إحساسه الكبير بإهمال هذه المنطقة من الدرس الأدبي النقدي في القديم والحديث، يقول الدكتور جميل : (... ومن الواضح أنَّ الحديث عن الأجناس النثرية الوجيزة كان حديثاً عارضاً طارئاً مشتتاً في متون المصنفات، فلم يكن مماثلاً لحديثهم عن الشعر أو الخطابة أو الرسالة، ولم تمثِّل هذه الأجناس مشغلاً رئيساً من مشاغل النقاد والبلاغيين القدامى)(2).

وقد رصد الدكتور جميل إهمال النقاد المحدثين لتلك الأجناس، فقال: (وما يمكن الجزم به هو أنَّ ما اصطلحنا على تسميته بالأجناس النثرية الوجيزة لم يمثل مشغلاً من مشاغل النقاد العرب المحدثين، ولم يستأثر باهتمامهم، وما قيل في هذه المسألة لم يعمل على الجمع بين هذه الأضرب من الكلام...)(3).

---

(1) انظر: تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية، د.محمود مقداد،دار الفكر المعاصر – بيروت، ط:1، 1413هـ/1993م:108-109.

(2) الأجناس الوجيزة في النثر العربي "رسالة دكتوراه" :21.

(3) السابق: 14.

وقد حاول أن يحصر مفهوم الأجناس النثرية الوجيزة في إبراز السمات المهَيمنة، والأوجه المشتركة التي أكسبت تلك الأصناف هوية أجناسية لها فلكٌ خاص، ومن تلك السمات : (الإيجاز، والذيوع والانتشار، والاضطلاع بوظيفة الشاهد، والتلفظ غير الشخصي، والاستقلالية النحوية ...)(1) .

وقد تنبه الدكتور جميل إلى نثر الصحابة وعدَّه منبعاً ثرَّاً لتلك الأجناس، فقال : (...وكان أن احتفل الناس بالأحاديث النبوية، وبأقوال الصحابة...، واستعملوها ورددتها ألسنتهم، ولما كانت هذه الأمثال القرآنية، والأحاديث النبوية، وما سَارَ في فلكها من أقوال مرتبطة بالدين والعقيدة، متعلقة بالمقدَّس المطلق فإنَّها قد غدت- فضلاً عن أدبيتها وإيجازها وفصاحتها- حججاً يوظفها المتكلمون، ويستدلون بها على نزعاتهم ومذاهبهم، ويدفعون بها آراء الخصوم ويبطلون مقالاتهم)(2) .

ومن الممكن أن نقول في مفهوم الأجناس النثرية الوجيزة: إنّهَا أقوالٌ نثريةٌ عفويةٌ، تتسم بقصر المقاطع، وحسن التأتي للفكرة، وتكثيفها، وتداولها وذيوعها عبر الزمن، ويدخل ضمن تلك الأقوال : الأمثال، والحكم، والأجوبة المفحمة، ... وغيرها.

---

(1) انظر : السابق:76.

(2) السابق:113.

ويَحسنُ أن أشير أخيراً إلى قضية مهمة، وهي هل الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة –رضوان الله عنهم- داخلة ضمن النثر الفني، على الرغم من عفويتها، وآنية صدورها ؟

وقد كفاني الدكتور عبدالله بن سليم الرشيد عناء الجواب عن هذه القضية حين بعثها في مقدمة حديثه عن مقطعات الأعراب التي تدثرت بالعفوية والآنية، ولم تصدر عن روية وصنعة، وفنَّد استبعادها من دائرة النثر الفني؛ ذلك أن الأغلب في نصوص الأدب القديم صدورها عفو الخاطر، وإلا لما رصد النقاد ظاهرة (عبيد الشعر) الذين عنوا بتنقيح شعرهم، وإبقائه حولاً كاملاً يرددون النظر فيه، فمن عداهم من الشعراء –وهم الأكثر- كانوا يُرسِلُون الشعر عفو خاطرهم، وطَوْعَ سجيتهم، وعلى ذلك يقاس النثر الفني.

كما أن الأحاديث النبوية معدودة من أرقى صور النثر الفني، مع أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يتكلفها، وإنما صدرت من طبعه، وهو أفصح قريش(1).

وأودُّ أن أضيف أيضاً أن اختيار الأدباء القدامى من أمثال ابن قتيبة والجاحظ والحصري وغيرهم، واحتفاءهم الكبير بتلك الأجناس النثرية الوجيزة لدليلٌ صارخ على أدبيتها، وقد استوقفني اختيار الجاحظ لتلك الأجناس التي أرسلها الصحابة –رضوان الله عنهم- في مناسبات مختلفة، وضمَّنها كتابه "البيان والتبيين" الذي عَمَدَ فيه إلى أرقى نماذج الأدب وأفصحها، وما

---

(1) انظر مناقشة الدكتور عبدالله بن سليم الرشيد لهذه القضية في مقدمة كتابه: (أدب الصحراء: دراسة في مقطعات الأعراب النثرية، نشر: المؤلف، ط:1، 1427هـ/2006م) :22-23.

اختيار الجاحظ لها إلا دليل أدبيتها، وعلامة فَنيَّتِهَا، ولعلَّ هذه الدراسة تُسهِمُ في تبديد الغموض حول أدبية تلك الأجناس التي صَدَرَ أغلبها عفو الخاطر من صحابة رسول – صلى الله عليه وسلم- من مثل قول ثابت ابن قيس بن شماس في معرض ردِّه على عامر ابن عبد قيس : (أما والله لئن تعرضت لِسبابي، وشَبَا أنيابي، وسرعة جوابي لتكرهنَّ جوابي)[1] وردِّ عمرو بن العاص على من سأله في مرضه الذي مات فيه عن حاله (أجدني أذُوْبُ ولا أثُوْب، وأجد نجوِى أكثر من رزئي، فما بقاء الشيخ على ذلك)[2] وقول علي ابن أبي طالب –رضي الله عنه- : (خذ الحكمة أنَّى أتتك، فإنَّ الحكمة تكون في صدر المنافق فَتَتَلَجْلَج في صدره حتى تخرج فتَسْكُنَ إلى صواحبها)[3] وغيره مما سيأتي ذكره من أقاويل تنضح بالأدبية مع آنيتها، وسرعة إرسالها.

ثالثاً– من أسباب اختيار الجاحظ لأقوال الصحابة الوجيزة :

- **مكانة منتج النص.**

لستُ- هنا- بصدد الاسترسال في الحديث عن فضائل الصحابة ومكانتهم فذلك له مقامات أُخر، إلا أن ما يعنيني هو أنهم-رضوان الله عنهم- جيلٌ ارتبط تقديرهم وإجلالهم في نفوس المؤمنين بما ورد في القرآن الكريم من آيات، وما ورد عن النبي –صلى الله عليه وسلم- من أحاديث

---

[1] البيان والتبيين :25/1.

[2] السابق:409/1.

[3] البيان والتبيين: 285/2.

تدلُّ على فضلهم وسبقهم، والاقتداء بهم(1)، فكان ذلك من لوازم الإيمان ومقتضياته المهمة.

وتلقَّف هذا الجيل لغته وفصاحته من لغة القرآن الكريم وألفاظه التي هي : (لبُّ كلام العرب، وزبدته، وواسطته وكرائمه، ... وإليها مفزع حُذَّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عَدَاها وما عدا الألفاظ المتفرعات عنها، والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنَّوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة ...) (2) .

كما استقوا فصاحتهم من فصاحة وبلاغة المصطفى –صلى الله عليه وسلم – التي قال عنها السيوطي ت 911هـ في حديثه عن الفصيح من كلام العرب : (أفصح الخلق على الإطلاق سيدنا ومولانا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- حبيب رب العالمين جل وعلا، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – : أنا أفصح من نطق الضاد بيد أني من قريش ... وروى البيهقي في

---

(1) من ذلك- مثلاً- قول الله تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) التوبة :100، وقوله تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشدَّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً) الفتح:29، و حديث أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه- أنَّ النبي- صلى الله عليه وسلم- قال : (لا تسبُّوا أصحابي فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما بَلَغَ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه) صحيح مسلم"كتاب فضائل الصحابة".

(2) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي، تحقيق محمد جاد المولى، علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، د.ت :201/1، والمقولة منسوبة للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل.

شعب الإيمان عن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله، ما أفصحك ! فما رأينا الذي هو أعرب منك . قال : حُقَّ لي، فإنما أُنزل القرآن عليَّ بلسانٍ عربي مبين...) (1).

ومن هذين المصدرين، وفي عصر الاستشهاد والفصاحة سطَّر أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– نماذج من الأدب النثري تَلَقَّفَها أعلام الأدباء باحتفاءٍ واضح، وعنايةٍ بالغة، وإجلال لأصحابها ؛ حيث تعاضدت فيها المضامين السامية، بالأساليب الرصينة، واكتسبت تلك الأقاويل –بالإضافة إلى أدبيتها– مسحةً من التقديس والإجلال ؛ ذلك أنها ارتبطت بالعقيدة وتعاليم الدين، وأخلاقه، وآدابه، وكان ذلك الجيل ناقلاً أميناً لها، وعوَّل عليها علماء الأمة جملة من الأحكام والتوجيهات، فكان أن حظيت آثار الصحابة بعناية فائقة من علماء الأمة، وحفظت مكتبتنا الإسلامية تراثاً زاخراً من مثل هذا اللون(2) .

والجاحظ قصد في كتابه "البيان والتبيين" إلى انتقاء ذروة سنام الأقوال البليغة، وأهدى كتابه إلى القاضي أحمد بن أبي دواد ت 240هـ، وكان من بلغاء الناس وفصحائهم وشعرائهم في عصره. قال عنه أبو العيناء : (ما رأيت رئيساً قطُّ أفصح، ولا أنطق من أبي دواد... كان شاعراً مُجِيداً فصيحاً

---

(1) السابق : 209/1.

(2) انظر على سبيل المثال كتب المصنفات مثل مصنف عبدالرزاق، ومصنف ابن أبي شيبه، وسنن البيهقي، وغيرها.

بليغاً)(1) وقد أدرك الجاحظ علوَّ كعب المهدى إليه في البيان والفصاحة، فكان لا بد أن ينتقي من مخزونه ما يتلاءم وبلاغته.

ولا ريب أنَّ الجاحظ في تنبيشه عن النماذج الرفيعة بثَّ أقاويل الصحابة في كتابه، معترفاً بفضلهم وسابقتهم، واحتواء مضامين أقاويلهم على أفكار جديدة استنبتوها من وحي الإسلام الذي محَا جملة من أفكار الجاهلية، ونطقوا بعاطفة إيمانية متوهجة، وبحماسة لا تخفى، وقد صرَّحَ بإجلال ذلك الجيل في مقدمة الجزء الثاني من كتابه، وكشف عن سبب انتقاء كلامهم، وتقديمه على غيرهم في الرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم، فقال : (...ولكنَّنا أحببنا أن نُصَيِّر صدر هذا الباب كلاماً من كلام رسول ربِّ العالمين، والسلف المتقدمين، والجلَّة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض، وحُلى الدنيا، والنجوم التي لا يضلِّ معها السَّاري، والمنار الذي يَرجِعُ إليه الباغي، والحزب الذي كثَّر الله به القليل، وأعزَّ به الذليل، وزاد الكثير في عدده، والعزيز في ارتفاع قدره، وهم الذين جَلَوا بكلامهم الأبصار الكليلة، وشَحَذوا بمنطقهم الأذهان العليلة، فنبَّهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها عن سوء عادتها، وشَفَوها من داء القسوة، وغباوة الغفلة، وداووا من العيِّ الواضح...)(2).

ولعل هذا الدافع النظري كان مهماً من وراء انثيال الأجناس النثرية في كتاب "البيان والتبيين" واستدعائها بين الفينة والأخرى، واستشعار الجاحظ

---

(1) وفيات الأعيان :101/1.

(2) البيان والتبيين: 2/5-6.

أهمية الاستشهاد بها في نفوس المتلقين الذين يُكِنُّون للصحابة كلَّ فضلٍ واحترام، ويتلقفون أقاويلهم بمزيد عناية واهتمام.

- **القيم الدينية والأخلاقية للنصوص:**

وقَفَت الوظيفة الفكرية وراء اختيار الجاحظ لجملة من الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة –رضوان الله عنهم- التي تدثرت بقيمٍ دينية وأخلاقية، واستطاع أن يستجلبها لمكنونها الفكري الدَّاعي إلى قيمٍ مثالية ضمَّت إلى سمو المضمون جودة السبك، وإيجاز العبارة، فكانت للمتلقي مادةً يَقتَنِصُهَا للاستدعاء والاستشهاد، مع ما حوته من معانٍ تُهذِّب النفوس، وتُرَقِّق القلوب، وتُبَصِّر بالعواقب؛ ذلك أنَّ الديانة كانت مُلهماً أساساً، ومؤثراً بارزاً في أدبهم الذي قَرُب عهده بالوحي وتعاليم الرسول –صلى الله عليه وسلم – مما جعل النقاد يرون في الدين عنصراً بازغاً في تهذيب الأدب وسموه. يقول الدكتور أحمد الشايب : (ولا يشك أحدٌ في سلطانه القوي في الآداب...على أنَّ الدين فوق ذلك يهذِّب النفوس، ويُرقِّق الشعور، ويَسْمُو بالنفس إلى مستوى خير رفيع فاضل ...)(1).

ولا ريب أن الجاحظ قد احتفى بتلك القيم الخلقية السامية، ونشرها في كتابه "البيان والتبيين" مُشعراً بأن البيان تتعاضد فيه المضامين بالأساليب، ليصبحا جناحي طائر يحلِّق بهما الأديب أنَّى شاء، وهاهو صاحبنا يقف أمام كلمة علي ابن أبي طالب –رضي الله عنه – حين قال : (قيمة كلِّ امرئ ما

---

(1) أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية ،ط:8،د.ت:88-89.

يُحسِن)(1) موقف المنبهر من مضمونها، وقدرة قائلها على تكثيف الفكرة في قالبٍ وجيز، مع نصاعة المعنى، وجودة سبك العبارة، يقول الجاحظ معلقاً: (فلو لم نَقِف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافيةً كافية، ومجزئة مُغنية؛ بل لوجدناها فاضلةً عن الكفاية، وغير مقصرّة عن الغاية، وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيرة، ومعناه في ظاهر لفظه، وكان الله – عزَّ وجل– قد ألبسه من الجلالة،وغشَّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطَّبع، بعيداً من الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلُّف صَنَعَ في القلوب صُنْعَ الغيث في التربة الكريمة)(2) وقد كرَّر النقاد هذه الكلمة كثيراً في كتبهم؛ ابتغاء أن يُثبِتُوا اهتمام الجاحظ باللفظ والمعنى على السواء، وغَارَ الخبر المعلَّق عليه، الذي قاد الجاحظ إلى مثل هذه الملحوظة النقدية التي حَفَرَت نفسها في كتابات النقاد عبر التاريخ.

وإذا توجهت لعرض أبرز مضامين الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة–رضوان الله عنهم– في كتاب "البيان والتبيين" التي دارت في فلك القيم الدينية والخلقية، فإنني أجد لمعان الأفكار الآتية(3):

أ- فكرة التزهيد في الدنيا، والاستعداد للآخرة، والترغيب بالجنة، والتحذير من النار، وهذه الفكرة اكتست بها جملةٌ من اختيارات الجاحظ ليس في كتاب "البيان والتبيين"

---

(1) البيان والتبيين: 83/1.

(2) السابق.

(3) قصدت في هذا المبحث أن يقف القارئ على نماذج من اختيارات الجاحظ للأجناس النثرية الوجيزة للصحابة –رضوان الله عنهم– ومداراتها الفكرية المهيمنة.

فحسب، بل كانت سمةً بارزةً في مؤلفاته؛ ذلك أنَّ العصر الذي عاشه تمدَّدت فيه مظاهر الترف، وتراءت فيه ملامح اللهو، فكانت قيمة الترغيب والترهيب حاضرةً ونابعةً من رغبته في تقويم الأخلاق، وبَعْثِهَا في نفوس المتلقين، وهذا ما رصده أحد الباحثين في القيم الأخلاقية عند الجاحظ، حين وقف مع إرادة الجاحظ الراغبة في ضبط التهالك وراء اللذات والشهوات فاعتمد على (مبدأي التَّرغيب والتَّرهيب، التَّحفيز والرَّدع، المكافأة والعقاب... هذان المبدآن اللذان، وإن تعددت أسماؤهما فإنهما في الأصل والأساس والغاية واحدة، ويشكِّلان عماد النَّظريات التَّربوية المعاصرة كلِّها، وإن تنوعت، أَو اختلفت الأفكار في طبيعة المكافأة والعقاب، أَو الترغيب والترهيب...)(1)، وهذا ما حدا بالجاحظ أن يُعنى بهذا المنهج، ويراه ناجعاً في تهذيب المجتمعات، وتأديبها، وبَعْثِ هممها، وإرجاعها إلى حقيقة الحياة، وتبصيرها بالمآل. يقول الجاحظ في إحدى رسائله : (فعلم اللهُ أنَّهُم لا يتعاطفون، ولا يتواصلون، ولا ينقادون إلا بالتَّأديب، وأنَّ التَّأديب ليس إلا بالأمر والنَّهي، وأنَّ الأمر والنَّهي غير ناجعين فيهم إلا بالتَّرغيب والتَّرهيب اللذين في طباعهم، فدعاهم بالتَّرغيب إلى جنَّته، وجعلها عوضاً مِمَّا تركوا في جنب طاعته. وَزَجَرَهُم بالتَّرهيب بالنَّار عن معصيته، وخوَّفهم بعقابها عن ترك أمره...

ثُمَّ أقام الرَّغبة والرَّهبة على حدود العدل، وموازين النَّصفة، وعدَّلهم تعديلاً متفقاً، فقال:(**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه...**)(2) .

---

(1) فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د.عزت السيد أحمد،منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق، ط:1، 2005م:175.

(2) رسالة المعاش والمعاد "الرسائل السياسية" : 73 – 74، والآية في سورة الزلزلة :7-8.

وسَرى هذا المنهج إلى كتاب "البيان والتبيين" فانتقى فيه ما يعزِّز تلك الرغبة الجامحة إلى التهذيب الخُلُقي عبر دوائر الترغيب والتحذير، والتذكير بالمآل، والتزهيد في الدنيا، و لا ريب فاختيار المؤلف قطعةٌ منه، لذا جاءت أقاويل الصحابة متماشيةً مع تلك القيم، ومن نماذج ذلك :

- (دخل عمير بن سعد على عمر بن الخطاب حين رجع إليه من عمل حمص، وليس معه إلا جراب وإداوة وقصعة وعصا، فقال له عمر: ما الذي أرى بك من سوء الحال أو تصنُّع؟ قال : وما الذي ترى بي؟! ألستُ صحيح البدن؟! معي الدنيا بحذافيرها قال: وما معك من الدنيا ؟! قال: معي جرابي أحمل فيه زادي، ومعي قصعتي أغسل فيها ثوبي، ومعي إداوتي أحمِلُ فيها مائي لشرابي، ومعي عصاي إن لقيت عدواً قاتلته، وإن لقيت حيةً قتلتها، وما بقي من الدنيا فهو تبعٌ لما معي)(1).

- ومن ذلك قول أبي الدرداء: (أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمل الدنيا، والموت يطلبه، وغافل ولا يغفل عنه، وضاحك ملء فيه، ولا يدري أساخطٌ ربه أم راضٍ، وأبكاني هول المطْلَع، وانقطاع العمل، وموقفي بين يدي الله، لا يُدرى أيَأمُر بي إلى جنةٍ، أم إلى النار)(2).

-وقول عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– : (الناس طالبان، فطالبٌ يَطلُب الدنيا فارفضوها في نحره، فإنَّه ربما أدرك الذي طلب منها، فهلَك بما أصاب

---

(1) البيان والتبيين : 43/3.

(2) السابق:151/3.

منها، وربما فاته الذي طلب منها، فهلك بما فاته منها، وطالبٌ يطلب الآخرة، فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافِسُوه)(1) .

- مرَّ أبو هريرة –رضي الله عنه- بمروان بن الحكم وهو يبني داراً، فقال: (يا أبا عبدالقدوس، ابنِ شديداً، وأمِّل بعيداً، وعش قليلاً، وكُل خَضماً، والموعد الله)(2) .

- دخل علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- على المقابر، فقال: (أمَّا المنازل فقد سُكنت، وأمَّا الأموال فقد قُسِمَت، وأمَّا الأزواج فقد نُكِحَت. هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثم قال: والذي نفسي بيده لو أُذِنَ لهم في الكلام لأخبروا أنَّ خير الزاد التقوى)(3).

ب- رؤية الصحابة –رضوان الله عنهم – لجملةٍ من القيم الخُلقية، والآداب المبتغاة، والحث عليها ولا ريب أنَّ العواطف المعنوية التي دفعتهم لجملة من تلك الأقوال أسمى في نظر النقاد- ومنهم الجاحظ -من العواطف الحسية؛ لأنها تتناول الحق والفضائل والأعمال المجيدة، وتحثُّ على مكارم الأخلاق، وتهذيب النفوس، وتلك أنبل من عواطف لا تُعنى إلا بالجمال الحسي فحسب(4)، وترددت في تلك المقطعات قيمٌ خلقية كثيرة كالمروءة، والصبر، وآداب المجالس، والتعلُّم، وغيرها، ودونك بعض النماذج التي اختارها الجاحظ في كتاب"البيان والتبيين"لبعض هذه القيم :

---

(1) السابق:3/138.

(2) السابق: 3/173.

(3) السابق: 3/155.

(4) انظر: أصول النقد الأدبي: 204-205.

- قول طلحة بن عبيد الله : (المروءة الظاهرة الثياب الطَّاهِرة)(1).
- (قيل لأبي هريرة : ما المروءة؟ قال: تقوى الله، وإصلاح الصَّنِيْعَة، والغداء والعشاء بالأفنية)(2).
- وقال عمرو بن العاص لمعاوية –رضي الله عنهما– (من أصْبَرُ الناس؟ قال: من كان رأيه راداً لهواه)(3).
- يقول عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–: (حدِّث الناس ما حَدَجُوْكَ بأبصارهم، وأذِنوا لك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترةً فأمسك)(4).
- يقول عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– : (تفقَّهوا قبل أن تسُودوا)(5).
- تقول عائشة –رضي الله عنها– (لا سهر إلا لثلاثةٍ: لمسافرٍ، أو مصلٍ، أو عروس)(6).
- وحينما دُعي علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– إلى طعامٍ قال للداعي: (نأتيك على ألا تتكلَّف لنا ما ليس عندك، ولا تدَّخر عنا ما عندك)(1) .

---

(1) البيان والتبيين: 176/2.

(2) السابق: 177/2.

(3) السابق :188/2.

(4) السابق:104/1.

(5) السابق:197/1.

(6) السابق:298/2.

ج- كما انتقى الجاحظ جملةً من أدعية الصحابة الوجيزة التي تصلح للاستدعاء والتمثُّل، وتفاوتت مضامين تلك الأدعية، فمنها ما ضُمِّن الرثاء من مثل قول عائشة –رضي الله عنها – حين قامت على قبر أبيها فقالت : (نضَّر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مُذلاً بإدبارك عنها، وللآخرة مُعزّاً بإقبالك عليها، وإن كان لأجلُّ الأرزاء بعد رسول الله –صلى الله عليه وسلم- رزؤك، ولأكبَر المصائب فقدك، وإنَّ كتاب الله لَيَعِدُ بجميل العزاء عنك حُسن العِوَض منك، فأنتَجِزُ من الله موعوده فيك بالصبر عنك، وأسْتَخْلِصُه بالاستغفار لك)(2).

وربما كان دعاءً بالمغفرة والرحمة، كدعاء علي بن أبي طالب حين قال: (اللهم إنَّ ذنوبي لا تَضُرُّكَ، وإنَّ رحمتك إياي لا تنقُصك، فاغفر لي ما لايضرُّك، وأعطني ما لا ينقُصُك)(3)، وقد يكون الدعاء، طلباً للحمد والمجد، كدعاء قيس بن سعد –رضي الله عنه- الذي أجمله ثم فصَّله حين قال: (...اللهم هب لي حمداً ومجداً؛ فإنَّه لا حمد إلا بفعال، ولا مجد إلا بمال)(4) .

كما انتقى الجاحظ أدعية أخرى، انطوت على غايات أخلاقية وأدبية، كدعاء عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- حين قال: (لا أدركتُ أنا

---

(1) السابق :197/2.

(2) السابق : 302/2 .

(3)- السابق:274/3.

(4) السابق:78/4.

ولا أنت زماناً يَتَغَايَرُ الناس فيه على العلم، كما يَتَغَايَرُونَ على الأزواج)(1) .

د- والفخر بالمنطق والبيان كان من المدارات الفكرية لهذه الأجناس، واختار الجاحظ منها جملة تتلاءم مع كتابه الذي دار في فلك هذا المضمون، كقول حسان بن ثابت –رضي الله عنه- واصفاً لسانه: (والله أن لو وضعْتُهُ على شعر لحَلَقَه، أو على صخر لَفَلَقَه، وما يسرُّني به مِقولٌ من مَعَدٍّ)(2)وكقول ثابت بن قيس بن شماس : (...أمَا والله لئن تَعَرَّضْتَ لِسبابي، وشَبَا أنيابي، وسُرْعَة جَوَابي، لتَكرَهنَّ جَنَابِي)(3).

وبقيت نماذج أُخرى حملت أفكاراً لا تصل إلى حدِّ الظاهرة، كوصف عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- للولد بأنه (ريحانةٌ أشمُّهَا، وعن قريبٍ ولدٌ بارٌ، أو عدوٌ حاضر)(4) وكوصف علي بن أبي طالب لزوجه لما سأله مالك بن الأشتر: (كيف وجدَ أميرُ المؤمنين أهله؟ فقال: كخير امرأةٍ، قَبَّاء جبَّاء(5)، قال: وهل يريد الرجال من النساء غير ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال: حتى تُدفئ الضَّجِيع، وتُروي الرَّضيع)(6).

---

(1) السابق:211/3.

(2) السابق: 63/1.

(3) السابق: 361/1.

(4) السابق: 285/3.

(5) القباء: دقيقة الخصر، والجباء : صغيرة الثديين.

(6) السابق: 78/2.

إنَّ المتأمل في جملة اختيارات الجاحظ لتلك الأجناس ليلحظ هيمنة القيم الأخلاقية، والفضائل النفسية، والآداب المختلفة المرتبطة في مجملها بالدين (ولاشكَّ أن حملها لهذه القيمة هو الذي دفع الناس إلى روايتها، والاستشهاد بها...وتوظيفها توظيفاً يُرَوِّجُ القيم المحمولة ويكرِّسها، ويبسط سلطانها على الضمائر والنفوس)(1).

ومن ملامح المضمون في تلك الأجناس المختَارة صدق قائلها، وأصالته في تعبيره، ورغبته الحقيقية في بَعْثِ ما في نفسه للمتلقي(2)، وهذا الملمح البارز هو سرٌّ من أسرار إعجاب المتلقين، وخروجها من ربقة المكان والزمان، وتمدُّدِها عبر الزمن، والاستعانة بها في مواقف الاستشهاد، وحضورها في أجناس أدبية أخرى، إما عبر التناص والتفاعل، أو الاقتباس والتضمين المباشر.

وخصيصة أُخرى لا تبعد عن سابقتها وهي وضوح تلك الاجناس، ووقوف المتلقين بتباين ثقافتهم على مسافةٍ واحدةٍ من فهمها، وإدراك مرامها، مع جودة سبكها، وقدرة قائلها على اختزال مضمونها في كلمات معدودة أضحت كالأمثال والحكم السيَّارة، وسبق أن ذكرت أنَّ الجاحظ تغيَّا الأقوال التي يكون معناها في ظاهرها، وأشاد بها في عبارته الشهيرة : (وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر

---

(1) الأجناس الوجيزة في النثر العربي القديم، جميل بن علي "رسالة دكتوراه" :307.

(2) الصدق كما يراه الناقد محمد غنيمي هلال هو : (أصالة الكاتب في تعبيره) وهذه الأصالة (هي أساس تقدُّم الفنون جميعاً، ومنها فن القول في كل العصور ، وعلى حسب كل مذاهب الأدب الحديثة المعتد بها) النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر-القاهرة، د.ت :214.

لفظه)(1) فلا غرو أن ينتخب من أقوال الصحابة الوجيزة ما يوافق ذائقته النقدية.

وتوافر التجارب، ودوران الحكم، والنظرات التأملية في تلك الأقاويل التي تحث على القيم الخلقية، والآداب، والأثر الجلي للقرآن الكريم أكسب تلك الأقوال عمقاً جلياً، ارتبط بحاجات الناس في الحياة، وحاكى حاجتهم لتهذيب النفوس، وتزكية الأرواح...، و لا ريب أنَّ أثر الأدب إنما يرتقي بعمقه الفكري، وبثراء الحقائق، يقول أحمد أمين: (وسنجد أنَّه لا يحق أن يُسمَّى أدباً إلا ما كان له حظٌ من أفكارٍ راقيةٍ، ومعانٍ سامية، وأنَّ قيمة الأثر الأدبي تَكْبُرُ بما فيه من عمقٍ في المعاني، وكثرة في الحقائق)(2).

وأجود العواطف هي تلك التي تمنح النصوص الأدبية سمة الخلود والتداول عبر الأزمان؛ ذلك أنها لا تعبر عن العواطف الذاتية فحسب، وإنما تعبِّر عن عواطف إنسانية عامة، أو تنبجس من عاطفة ذاتيةٍ سرعان ما تتمدَّد لتخرج من ربقة الذاتية لتعبِّر عن قيم المجتمع، وهذا ما ألمحُه في تلك الأجناس التي أضحت علامات واضحة في ميدانها المضموني، ولك أن تتأمل على سبيل المثال مقولة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- : (حِرفةٌ يُعَاش بها خيرٌ من مسألة الناس)(3) وقول علي بن أبي طالب –

---

(1) البيان والتبيين: 83/1.

(2) النقد الأدبي، أحمد أمين، دار الكتاب العربي-بيروت، ط:4، 1387هـ/1967م :64.

(3) البيان والتبيين : 81/2.

رضي الله عنه – : (قيمة كل امرئٍ ما يحسن)(1)، وقول عمرو بن العاص : (البِطْنَة تُذهب الفِطْنَة)(2) فهذه الأقوال بما تختزله من سمو المضمون، وعمقه، ونبض العاطفة الإنسانية استحالت علامات فارقة في الحث أو التحذير، وردَّدها الجاحظ بذوقه المرهف، كما رددها من قبله، وما زالت خالدةً في ذاكرة الأدب يرددها الناس، ويستشهدون بها، وتملأ إعجابهم، وتستحوذ على عقولهم، وتسهم في الرقي بقيمهم الخُلقية، وزجرهم عن دركات السقوط الخُلقي والأدبي، وما استدعاء الجاحظ لها في كتابه "البيان والتبيين" إلا صورة من صور العناية بالمضمون، وأنموذج للاجتهاد في التنقيب عن الأفكار التهذيبية، وبعثها في نفوس المتلقين، ودعوتهم إليها، وهي في الجانب الآخر تدحض رأي القائلين بتقديم الجاحظ للألفاظ على حساب المعاني والأفكار.

- **بروز بعض القيم الفنية :**

وقفت على بعض الملامح الفنية من وراء انتقاء الجاحظ لتلك الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة –رضوان الله عنهم– في كتابه "البيان والتبيين" ولعلَّ من ألمع تلك العناصر الجمالية ما يأتي:

أ- **الإيجاز والتكثيف**: وهو أحد المعايير البلاغية التي تغنَّى بها الجاحظ كثيراً، وأشاد بنماذجها في مواضع متفرقة من كتابه، من مثل إيراد تعريف صحَّار بن عياش العبدي للبلاغة بأنها الإيجاز،

---

(1) السابق : 77/2.

(2) السابق : 81/2.

ثمَّ فسَّر الإيجاز بقوله: (أن تُجيب فلا تُبطِئ، وتقول فلا تُخطئ)(1)، وكما في روايته لقول جعفر بن يحيى لكتَّابه: (إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا)(2).

إنَّ هذا المعيار البلاغي الذي ألحَّ الجاحظ عليه كثيراً في كتابه دفعه إلى انتقاء النماذج التي تتسق معه، فكان أن تلقَّف النماذج الموجزة، ذات المعنى الكبير، والألفاظ القليلة، مما هو أقرب إلى ولوج المعنى في نفس السامع، وبُعدِه عن الاستغلاق والاستبهام، على حدِّ قول أحدهم: (عليكم بالإيجاز فإنَّ له إفهاماً، وللإطالة استبهاماً)(3)، كما أنَّ الكلام الموجز أدنى إلى الحفظ، وأسرع إلى التداول(4)،والأجناس النثرية للصحابة –رضوان الله عنهم- كانت من جملة ما عُني به الجاحظ، ووجده محقِّقاً لهذا المعيار البلاغي المهم، وجاءت أقوالهم ومحاوراتهم في جملٍ مكثفة، ذات دلالات متمدِّدة، وفي قوالب تدنو من الحكم والأمثال، المتعامدة على الاكتظاظ الدلالي، والثراء الفكري، ومحدودية الألفاظ والعبارات، ولك أن تتأمل –مثلاً- قول عمر بن

---

(1) السابق: 96/1.

(2) السابق:115/1.

(3) الصناعتين، لأبي هلال العسكري ، تحقيق د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية–بيروت،ط:2 109هـ/1989م:193.

(4) وقد قال الخليل بن أحمد : (يطول الكلام ويكثر ليفهم، ويوجز ويختصر ليحفظ) وقد أورد هذه العبارة ابن رشيق في العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 23.

الخطاب –رضي الله عنه– : (السؤدد مع السَّوَاد)(1) فالسؤدد تُحيل إلى معنى الجدِّ والاجتهاد في طلب العلم، أو التكسُّب أو العبادة، أو أي عمل يؤدي إلى المجد والعلو، والسواد يُلمِح إلى الشباب، وعمر –رضي الله عنه– يحثُّ على استثمار عمر الشباب في الطلب، فإذا جَازَه الإنسان تبدَّدت غاياته وتطلعاته، وهذه العبارة الكثيفة، ذات الدلالات المتمدِّدة جمعت بين الإيجاز، والبعد عن مباشرة الغاية، فكان الجاحظ بها مُحتَفياً.

ومثلها قول عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان –رضي الله عنهم–لما سأله الأخير: (من أصبر الناس؟ قال : من كان رأيه راداً لهواه)(2)، فقيمة الجواب التي دفعت الجاحظ لاستجلابه تكمن في كثافة مضمونه، وضمور كلماته، فضابط الصبر في رأي عمرو هو إلجام الهوى بلجام العقل والرأي، وإسقاط هذا الضابط يتسق مع كثيرٍ من الشهوات، وفيه إشارة إلى كبح النفس عن جملة من المحرمات، وما من شكٍ أنَّ قدرة عمرو ابن العاص–رضي الله عنه– على تكثيف ضابط الصبر كان مُغرياً للجاحظ بتأكيد قيمة الإيجاز، ودلالاته.

أمَّا قول علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– (قيمة كل امرئٍ ما يُحسن)(3) فقد سبقت الإشارة إلى الاحتفاء العظيم من الجاحظ بهذه

---

(1) البيان والتبيين: 197/1.

(2) السابق: 188/2.

(3) السابق: 77/2.

العبارة، ونصَّه على أنَّ الإيجاز والتكثيف هو مربط الجمال فيها، حيث قال : (فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافيةً كافية، ومجزئة مُغنية؛ بل لوجدناها فاضلةً عن الكفاية، وغير مقصرة عن الغاية، وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيرة، ومعناه في ظاهر لفظه)(1) فهذا النص صَدَّرَهُ الجاحظ؛ ليكون أُنموذجاً راقياً للإيجاز الذي تغيَّاه في نظريته البيانية.

لقد كان الإيجاز سمةً لامعةً من سمات الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة رضوان الله عنهم –وهو –أي الإيجاز- (مقياسٌ من مقاييس جودة الكلام وشهادة على أدبيته، وهو تبعاً لذلك سمةٌ نوعية تُخرج الكلام الأدبي البليغ من دائرة الكلام العادي اليومي)(2) فهو اختزالٌ للتجارب، وتكثيف للخبرات يُولَد في عبارات وجيزة، وكلمات دالة، ولذا عُنِيَ الجاحظ به، وتَتَبَّعَ نماذجه، ومثَّل عنده وظيفة من وظائف البلاغة والبيان فكان أن بثَّ أقاويل الصحابة النثرية التي مثلت صورة من صور الإيجاز؛ ذلك أنَّ الصحابة كانوا على وعيٍ كبير بأهمية الإيجاز في لسان العرب، وحمدهم للأقوال الوجيزة، والأبيات الشعرية السائرة، إضافةً إلى تأثرهم الواضح بالقرآن الكريم الذي جاءت آياته أنموذجاً مُعْجِزاً في توليد الدلالات من الآية أو جزء منها، كما كانت جوامع كلم المصطفى –صلى الله عليه وسلم- حاضرةً في أذهانهم،وعند حديثهم، وَتَشبُّع الصحابة من هذين المصدرين، والعناية بهما، ولَّد أثراً عميقاً ؛ حيث خرجت عباراتهم

---

(1) السابق: 183/1

(2) الأجناس النثرية الوجيزة في النثر العربي القديم :94.

متدثرةً بالإيجاز الذي تغيَّاه الجاحظ في كتابه"البيان والتبيين" وأدار عليه نظريته في الفصاحة والبيان.

ب- الإيقاع والجرس :

(يمثِّل الإيقاع في تقاليد تقبُّل الأجناس الأدبية عنصراً مشتركاً بين الأجناس الشعرية، والأجناس النثرية البسيطة القريبة صلتها بالنثر الشفوي)(1) وأجناس الصحابة الوجيزة التي اختارها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" هَيمَنَ عليها الخطاب الشفهي، الذي يمثل الإيقاع عنصراً جاذباً، ومؤثراً في حفظها وروايتها، وقديماً قال ابن الأثير ت 673هـ: (وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلةً وقعت من النفس موقع الاستحسان...)(2) .

وقد تنوعت مصادر الإيقاع في النماذج التي انتقاها الجاحظ، فكان السجع والموازنة(3) من أبرزها، وقد تنبَّه العلماء إلى ما يُحدثه من أثر في النصوص، وتداولها، حتى قال أبو هلال العسكري: (لا يَحْسُنُ منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغٍ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلامٌ عن الازدواج لكان القرآن...)(4) .

---

(1) الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي (مشروع قراءة شعرية) د.صالح بن رمضان، دار الفارابي،بيروت،ط:2: 2007م:557.

(2) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق: كامل محمد محمد عويضة،دار الكتب العلمية، ط:1 1419هـ/1998م:269/1.

(3) السجع : أن تتواطأ الفاصلتان في النثر على حرف واحد، أما الموازنة فهي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية. انظر: علوم البلاغة ، أحمد المراغي، د.ن ، د.ت: 360، 364.

(4) الصناعتين: 285.

ومن النماذج التي تجلَّت فيها مصادر الإيقاع السالفة قول علي بن أبي طالب- رضي الله عنه – لما مرَّ بالمقابر: (أمَّا المنازل فقد سُكِنَت، وأمَّا الأموال فقد قُسِمَت، وأمَّا الأزواج فقد نُكِحَت، هذا خبر ماعندنا فما خَبَرُ ما عِندكم؟...)(1)فنبرة التأمُّل الحزينة لاءمت تقسيم الجمل بإيقاعٍ بَزَغَ فيه حرف (التاء) وامتدت مع تكراره روح الاستذكار، والتحقُّق من المآل، والتذكير بالعاقبة، وعمق التأمل في مصير الإنسان، والأداة (أمَّا) ارتكزت في بداية الجمل الثلاث مكرَّسة فكرة التحول التي ابتغى أن تتحقق في نفسه، ويعظ بها غيره.

ومما برز فيه الإيقاع أيضاً دعاء أبي ذر –رضي الله عنه- حين قال: (اللهم أمتعنا بخيارنا، وأعنَّا على شرارنا)(2)ودعاء قيس بن سعد-رضي الله عنه- : (اللهم ارزقني حمداً ومجداً، فإنَّه لا حمد إلا بفعال، ولا مجد إلا بمال)(3)وقد طَرب عبدالقاهر الجرجاني ت 471هـ أو474هـ للسجع في دعاء قيس، وأورده مثالاً للسجع المستحسن الذي قال عنه: (...فإنَّك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، حتى تجده لا تبغي به بدلاً، ولا تجد عنه حِولاً، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقُّه بالحسن وأولاه ما وَقَع من غير قصدٍ من المتكلِّم إلى اجتلابه، وتأهب لطَلَبه...ومثال ما جاء من السجع هذا المجيء،

---

(1) البيان والتبيين:155/3.

(2) السابق:285/3.

(3) السابق :78/4.

وجرى هذا المجرى في لين مقادته، وحلَّ هذا المحل من القبول قول القائل: اللهم هَب لي حمداً، وهَب لي مجداً ...)(1)

وربما نبع الإيقاع من الجناس فكان تقارب تكرار الحروف على مسافات مناسبة مصدراً من مصادر الجرس، ومُفضِياً للتعبير عن الإحساس، فتكرير الحروف يُكسِب الكلام إيقاعاً مبهجاً (يدركه الوجدان السليم حتى عن طريق العين فضلاً على إدراكه السمعي بالأذن)(2) ولعلَّ اختيار الجاحظ لقول عمرو بن العاص- رضي الله عنه- في مرض موته يُبرِزُ إعجابه بإيقاعها الذي برز من تكرير الحروف في حلَّة بلاغية أطلق عليها البلاغيون مصطلح "الجناس" ذلك حين قال في عبارة جميلة مُعبِّرة: (أجِدُني أذُوْب ولا أثُوْب...)(3) فالإيقاع-هنا- يتعامد على تكرار حرفي (الواو-والباء) وتقارب مخرج حرفي (الذال والثاء) فكان الجناس، والتصوير المعبِّر من ملامح الجمال والتأثير في هذه الكلمة، وأفضت بوقع المرض المنهك الذي ناله، وشَعَرَ إزاءه بتناقصٍ لا يؤوب به إلى حال الصحة .

وإذا كان تكرير الحروف مؤثراً في القيمة الإيقاعية، فإنَّ تكرير الكلمات على مسافات مناسبة في أقاويل الصحابة أغرى الجاحظ أيضاً باختيارها؛

---

(1) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود شاكر، دار المدني، جدة،ط:1، 1412هـ/1991م :11-12.

(2) التكرير بين المثير والتاثير، د.عز الدين علي السيد، عالم الكتب، ط2،1407هـ/1986م:45.

(3) البيان والتبيين: 409/1.

ذلك أنَّ القيمة الإيقاعية في تكرير الكلمات أكبر(1)، مع دلالةٍ فكريةٍ يرغب القائل في تكثيفها، والإلحاح عليها، تأمَّل قول عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– : (مَن كَثُر ضحكه قلَّت هيبته، ومن أكثر من شيءٍ عُرِف به، ومن كَثُر مزاحه كثر سقطه، ومن كَثُر سقطه قلَّ ورَعُه، ومن قلَّ وَرَعُه ذهب حياؤه، ومن ذَهَبَ حياؤه مات قلبه)(2)فتكرار كلمة (كثر) و(قلَّ) المتلازمة مع (مَن) أدَّت إلى تقسيم الجمل بشكل متساوٍ، وبوقفات متوازنة، وشكَّلَت الكلمات المكرَّرة مركزاً للربط المنطقي بين الجمل، آخذين في الحسبان أيضاً فكرة الإلحاح، والتأكيد على الكثرة والقلة التي جعلها عمر –رضي الله عنه– معياراً دقيقاً لترتُّب الأحكام المذكورة، ومفهوم المخالفة يقضي بموضوعية الاعتدال والقصد فيما ذُكِر.

إنَّ الجاحظ وهو ينتقي مادة كتابه يستشعر أهمية الإيقاع والجرس في الأقاويل النثرية، فكان معجباً باعتدال الإيقاع، وتأثيره في الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة فقَصَدَها؛ ليقدِّم للقراء أنموذجاً نثرياً يأتمون به في البيان .

ج– التناص القرآني:

التناص يعني تداخل النصوص، وتفاعلها، وامتزاج نصوص سابقةٍ، بنصٍ حاضر(3)، أو هو تعالق نصوصٍ مع نصٍّ حَدِث بكيفيات مختلفة(1) (وهو

---

(1) التكرير بين المثير والتأثير:79.

(2) البيان والتبيين:188/2.

(3) انظر : النص الغائب "تجليات التناص في الشعر العربي" ، محمد عزام، نشر اتحاد الكتاب العربي دمشق، 2001م:29

بهذا المفهوم أمرٌ قائمُ ومشروعٌ لا مناص منه، بحيث لا يمكن تصور نصٍ بريءٍ يُنشئه مبدعه من درجة الصفر)(2).

والصحابة الكرام –رضوان الله عنهم- عاشوا مع القرآن، وامتلأت نفوسهم بآياته، وأدركوا بوعي تام إضفاء آيات القران على النص لوناً من القدسية والاستشعار بالعظمة، فكان من سمات أدبهم بعامة تداخل نصوصه وامتزاجها مع القرآن الكريم، وتَفَاوَتَ ظهور النص القرآني في نصوص الصحابة، بين تناصٍ ظاهر إلى امتزاج وذوبان يُحيل إلى ظاهرة من ظواهر التناص اللاشعوري، أو "تناص الخفاء" كما يسميه بعضهم.

والجاحظ أديبٌ احتفى –كما احتفى غيره- بإعجاز النص القرآني، وتأثيره في أهل البيان والفصاحة، فقال في معرض حديثه عن الإعجاز: (...ولو أنَّ رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورةً قصيرة أو طويلة؛ لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنَّه عاجزٌ عن مثلها، ولو تحدَّى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها)(3).

وربما كانت قيمة التناص مع آيات القرآن الكريم دافعاً لانتقاء تلك

---

(1) تحليل الخطاب الشعري"إستراتيجية التناص" د.محمد مفتاح،المركز الثقافي العربي–الدار البيضاء ،ط:2-1986م:

(2) التناص في مختارات من شعر الانتفاضة المباركة، د.عبدالرحيم حمدان حمدان، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، المجلد الثالث، العدد:3، رمضان 1427هـ /أكتوبر 2006م: 83.

(3) رسائل الجاحظ "حجج النبوة" :229/3.

الأجناس الوجيزة التي شعَّت بآي القرآن وألفاظه، وأضفت على النصوص مسحة قدسية مؤثرة، استخدمها الصحابة –رضوان الله عنهم- في مواقف الوعظ والتذكير، المحتاجة إلى إلهاب العواطف، وملامسة المشاعر، كقول علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- لما مرَّ بمقابر، فقال: (السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلفٌ فارِط، ونحن لكم تَبَع، وبكم عمَّا قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنَّا وعنهم، الحمد لله الذي جعل الأرض كِفَاتَاً، أحياءً وأمواتاً، والحمد لله الذي خلقكم، وعليها يَحشُرُكم، ومنها يبعثكم، وطوبى لمن ذكر المعاد، وأعدَّ للحساب، وقَنِعَ بالكَفَاف)(1) .

فالنص القرآني يَلْمَعُ في النص السَّالف بجلاء واضح في قوله (الحمد لله الذي جعل الأرض كفاتاً، أحياءً وأمواتاً) ويحيل إلى قول الله –سبحانه وتعالى- {**ألم نجعل الأرض كفاتاً. أحياء وأمواتا**} (2) ولا ريب أن استدعاء الآية الكريمة جاء في منتهى الانسجام مع المضمون، والأسلوب، ولا تلمح فيه إقحاماً أو تكلفاً، ويأتي نتيجة تمعنٍ وتأملٍ أملت على علي –رضي الله عنه- الحمد والشكر على تكريم الإنسان وحفظه في الحياة، وبعد الممات، وهو يأتي بعد التقرير بمصير الأموات والأحياء الذي استهلَّ به تعزيته، ثم الدعاء للأموات، وأراد أن يفتِّش عن نعمةٍ يشترك فيها الأحياء والأموات، فكانت الآية الكريمة ملاذاً لعلي، التقطها بما أبهره من دلالتها

---

(1) البيان والتبيين:3/148.

(2) سورة المرسلات، آية :25،26.

وتعبيرها، وكثافة مضمونها لنعمة الحفظ والصيانة للإنسان...

ومن التناص القرآني الناصع الذي استوقف الجاحظ قول سعد بن أبي وقاص -وكان مستجاب الدعاء- لعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- حين شاطره ماله: (لقد هَمَمتُ، فقال له عمر: أن تدعو الله عليَّ؟! قال: نعم، قال: إذن لا تجدني بدعاء ربي شقياً)[1].

فرد عمر -رضي الله عنه- يحيل إحالةً صريحة إلى قول الله تعالى: {**واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً**} [2] فامتلاء قلب عمر بالقرآن، ووعيه بمقاصده، وفهمه لدقائقه، جعلت ردَّ الجواب يأتي سريعاً باستدعاء نصٍ قرآني أضفى على جوابه مسحةً قدسيةً مُفْحِمَةً لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه- يستوعبها كما عمر -رضي الله عنه-

أما التناص الخفي الذي يذوب فيه النص "الغائب" في النص "المنتَج/ الحاضر" فإنَّ أثر الإسلام المُستمد من القرآن الكريم، والحديث النبوي يبدو في جلِّ النصوص التي انتقاها الجاحظ للصحابة -رضوان الله عنهم- وتدثرت بقيمٍ قرآنية لم يعرفها الصحابة قبل إسلامهم، كقيمة الزهد، والاستعداد للآخرة، وبذل النفس للدين، والحث على الصدقة، والحث على جملة من العبادات، وقد حوى كتاب "الزهد" في المجلد الثالث كماً كبيراً من تلك الأجناس الوجيزة التي امتلأت بمعانٍ قرآنية تتقاطع مع آياته إن قريباً، أو بعيداً، ولنا أن نتأمل قول أبي الدرداء: (أقرب ما يكون العبد من غضب

---

[1] البيان والتبيين: 277/3.

[2] سورة مريم: 48.

الله إذا غضب، واحذر أن تظلم من لا نَاصِر له إلا الله)(1)، فالتحذير من الظلم، والإنذار بعاقبة دعاء المظلوم معنى إسلامي تردَّد في آي القرآن كثيراً(2)، وأضحى من المعاني المستقرة في نفس كل مؤمن، وبذرته نَبَتَت في مقولة أبي الدرداء –رضي الله عنه– التي تحيل بتفاعلٍ خفيٍ لمجموع الآيات المحذرة من الظلم وعاقبة الظالمين، وأمثلة التفاعل النصي غير المباشر يطول ذكرها إلا أن المتأمل في النماذج التي انتقاها الجاحظ، ودارت في فلك القيم والأخلاق والزهد يجدها تعكس إشراقات قرآنية، ملأت نفوس الصحابة، وتمثلوها، وطَفت على أقوالهم، وتغلغلت في أدبهم.

د–إيحاء الألفاظ :

(تُشَكِّل اللفظة في العمل الفني مرحلةً من أهم وأخطر مراحل الاختيار والتركيب...ثم تؤدي وظيفة حسَّاسة حين تحتل موضعاً تبثُّ من خلاله إشعاعها في اتجاهات عديدة...)(3) وما يعنيني في هذا المقام هو لمعان بعض الألفاظ الإيحائية في أجناس الصحابة –رضوان الله عنهم– وتأثيرها الناصع الذي أذعن الجاحظ له، وكان مستفزّاً لذائقته، وربما داعماً لاختياره،ومثل

---

(1) البيان والتبيين:3/141.

(2) من مثل قول الله تعالى: { إنَّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادِقها} سورة الكهف: 29 وقوله تعالى: {ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم ... } سورة سبأ :31،...

(3) أدبية النص "محاولة لتأسيس منهج نقدي عربي" د.صلاح رزق، دار غريب–القاهرة، ط:2،2001م :213.

هذه الألفاظ أسماها بعضهم بـ" الألفاظ الفسفورية "[1] إذ هالة اللفظة ونغمتها وانسيابها في السياق تستوقف المتلقي، ويبقى أثرها في نفسه، ونغماتها حيَّةً في ضميره.

وإذا تأملت في الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة التي انتقاها الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين" أجد ألفاظاً جاذبة للنص، وذات إيحاءات مؤثرة، وقيمة فنية تَجَاذَبَ فيها الصوت مع الدلالة، والقدرة على إصابة الغاية، ومن ذلك لفظة (نأنأة) التي وردت في قول أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– : (طوبى لمن مات في نأنأة الإسلام)[2] وأورد ابن منظور ت711هـ هذا النص في مادة "نأنأ" ثم علَّق قائلاً: (...يعني أوَّل الإسلام قبل أن يَقوَى، ويكثر أهله وناصره، والدَّاخلون فيه، فهو عند الناس ضعيف)[3].

ولا ريب أنَّنا لو استحضرنا البدائل المختلفة لهذه الكلمة لوجدنا كمَّاً لفظياً صالحاً للإفضاء بالغاية، إلا أنَّ اصطفاء لفظة (نأنأة) جاء مُشِعَّاً وجاذباً للنص، فتكرير حرفي (النون) و(الهمزة) وهما حرفان مجهوران – وسمة الحرف المجهور القوة والشدة [4]– كان موحياً بثقل الأعباء، وعظمة المسؤولية، وهمِّ الأمانة التي استشعرها الصديق –رضي الله عنه– في وقفة تأملٍ وتفكرٍ أملت

---

(1) هندسة القرآن"دراسة فكرية جديدة في تحليل النص " د.جمال البدري، الأوائل للنشر والتوزيع، ط:1، 2003م : 40

(2) البيان والتبيين: 151/3.

(3) لسان العرب ، مادة "نأنأ".

(4) يصف الدكتور إبراهيم أنبيس الحروف المجهورة بأنها: (الصوتُ الذي يهتزّ أو يتذبذبُ الوتران الصوتيّان عند النطق به). الأصوات اللغوية : 21.

عليه انتقاء كلمة (نأنأة) عمَّا سواها، وكانت مُشعةً بنبرتها الصوتية النافثة لزفرة الحِمل الثقيل، والأمانة العظيمة، ولمعَانُ هذه اللفظة في النص كان الملمح الأبرز فنياً على مستوى الأسلوب، وربما كان دافعاً لانتقائه من قبل الجاحظ.

ولفظة (تُلغي) في قول أبي الدرداء – رضي الله عنه - : (نِعْمَ صومعة المؤمن منزلٌ يكفُّ فيه نفسه وبصره وفرجه، وإياكم والجلوس في هذه الأسواق فإنها تُلْغِي وتُلْهِي)[1] لفظةٌ منتقاة، أضفت على النص قيمةً فنية بما حملته من معاني التنفير، والتحذير من الأسواق التي تَحمل الإنسان على اللغو من الحديث، والمجاذبة والمجادلة بغير حق...، وتَضَافُرِ إيحاء هذه اللفظة مع قيمة الجناس بين لفظتي (تُلغي/تُلهي) المختومة بحرف المدِّ الملائم لنبرة التحذير والنُصح يستوقف المتلقي، ويستفزُّ حاسته الفنية.

واللفظة المنتقاة تكشف كوامن المعنى، ودقائق الأحاسيس[2]، وبها يستعين منتج النص على بثِّ عواطفه، وخلجات نفسه، فتصبح اللفظة حينئذ عنصراً فاعلاً في تشكيل الصورة في ذهن المتلقي، وهذا ما رصدته في قول عمرو بن العاص –رضي الله عنه- في مرض موته حين قال : (أجدُني أذُوبُ ولا أثُوبُ...)[3] فلفظة (أذوب) لفظةٌ تصويرية جسَّدت إحساسه الأليم بالمرض الذي سرى في جسده ببطءٍ، وتأنٍ غير محمود، وكشف عن

---

[1] البيان والتبيين: 132/3.

[2] جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، د.علي نجيب إبراهيم، دار كنعان للنشر والتوزيع،ط: 1، 2002م: 36.

[3] البييان والتبيين : 409/1.

ذوبان جسده كما تذوب الشمعة المتوهجة، وقرَّر هذا الذوبان بقوله : (ولا أثوب) فهي تأكيد على عدم رجعة ما فقده من الصحة، وهكذا تُسهِمُ الألفاظ في رسم الأحاسيس ونقلها في أقاويل الصحابة بدقة متناهية، وإيحاء يستقر في ذهن المتلقي، ويستوقفه للتأمل، وبقيت الملمح الأبرز في النص الذي جبذ الجاحظ لاختيار تلك النماذج، وتقديمها لقرَّائه أنموذجاً للبيان والبلاغة في عصورها المزدهرة.

هـ – الصُّورُ المُوضِّحة :

الصورة أداةٌ يرسم بها الأديب مشاعره، ويصوغ أحاسيسه، وهي برهانٌ يلجأ إليه لتقوية معناه، وتجلية أفكاره، وتقريب مراده إلى المتلقين، والتأثير فيهم، والأجناس الأدبية تتمايز في احتضان الصور، ومقدار تكثيفها، والنثر أقرب إلى العقل من الشعر، كما أنَّ الشعر أقرب إلى العاطفة والأحاسيس.

والأدب الشفهي الآني الذي يُولَد في لحظة سريعة ليس كقطعة نثرية تَسْكُنُ أفكارها في نفس صاحبها، ويصوغها في تأنٍ وهدوء، ويجد أُفقاً فسيحاً لرسم الصورة ، ومباغتة المتلقي بغير ما يتوقعه، أو ما يسميه بعضهم بعنصر "المفاجأة" الذي يستوقف القارئ لتأمل الصورة،والوصول إلى مبتغى الأديب.

والأجناس النثرية الوجيزة للصحابة– رضوان الله عنهم– غَلَبَت عليها الآنية، والاستجابة السريعة، وكانت أداةً للتوضيح والبيان، والتأثير في نفوس المتلقين ترغيباً

وترهيباً، وتحكَّمت فيها العاطفة التي تنتقي ألوان الصور(1) كما سيطرت الصور الحسية على مجمل تصويرهم الذي جاء استجابة لحاجة الإيضاح والتأثير التي أشرت إليها، ولا عجب فأغلب الصور تقع في دائرة الحس (2)، كما كانت البيئة التي تقلَّب فيه الصحابة –رضوان الله عنهم– داعمة لغلبة الصور الحسية وبساطتها.

وقصر النصوص لم يكن عائقاً أمام توالد الصور فيها، وهذا ما تنبَّه له الميداني ت 518هـ في بلاغة الأمثال –وهي جنس نثري وجيز– حين أورد في مقدمة كتابه عبارة إبراهيم النظام التي حدَّد فيها أُطر الأمثال، فقال: (يجتمع في المثل أربعة أشياء لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة)(3) وهذه المحدِّدات في نظري تستقيم للأجناس الوجيزة من غير الأمثال أيضاً.

وعند التمعن في نماذج الصحابة التي اختارها الجاحظ أجد أنَّ الصورة مثَّلت عنصراً فنياً مضيئاً دعم انتقاء تلك النماذج، فالصورة في قول علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– : (خذ الحكمة أنَّى أتتك، فإنَّ الحكمة تكون في صدر المنافق

---

(1) انظر: البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، د.علي علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث، 1416هـ/1996م : 26 .

(2) انظر : أمالي المرتضى : 22/1 .

(3) مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل– بيروت، 1416هـ/1996م: 1/7-8.

فَتَتَلَجْلَج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها)(1) هي العنصر الأبرز في النص، فالفكرة تتعامد على تلقُّف الحكمة من أي مصدر، واستقرارها في نفس المؤمنين، العاملين بمحتواها، ولذا لجأ عليٌّ -رضي الله عنه- إلى التصوير، واستطاع أن يرسم انتقال الحكمة من نفس المنافق إلى نفس المؤمن، فكانت لفظة (تَتَلَجْلَج) نابضةً بطي الحكمة، وتأخر انبعاثها، وضمور النصح بها، وفي المقابل نجحت لفظة (تَسْكن) في تصوير استقرار الحكمة، وآنيتها في نفس المنافق، فهي تدور في نفس المنافق بعيداً عن الاستقرار، فترحل منه إلى بيتها الكامن في نفس المؤمن الناصح بها، العامل بمقتضاها بإيمانٍ وصدق، والصورة بمجملها -هنا- تُفصِحُ عن تلقف الحكمة أنَّى كان مصدرها.

(وأجمل الصور هي التي تأتي من تحويل المعاني المجردة إلى هيئات وأشكال تنتقل بالحواس)(2) من مثل وصف عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- لولده بقوله (ريحانة أشمها، وعن قريبٍ ولد بار، أو عدو حاضر)(3) فنشوة الولد، والفرحة بطلعته صوَّرها عمر –رضي الله عنه- في هيئةٍ حسيةٍ مشمومة، فكانت أدنى إلى تصوير عاطفته، وأقرب إلى تجلية الإحساس، كما أنَّ أثر شم الريحانة يتمدَّد مع صاحبه، ويشعر بنشوته مع تكرُّر شمِّه مرةً بعد أخرى، وكذا طلعة الولد وتأمل مستقبله.

---

(1) البيان والتبيين: 285/2.

(2) الصورة الفنية في النقد الشعري، عبدالقادر الرباعي، دار العلوم-الرياض،ط:1، 1405هـ: 86

(3) البيان والتبيين:285/2.

وهيمنة الوعظ والإرشاد، والتزهيد في الدنيا جعل الصورة في هذه الأجناس لا تحمل إعمالاً في تكوينها، وتباعداً بين أطرافها، وإمعاناً من المتلقي في تحليلها، وإنما حملت لوناً من المباشرة التي ولدت من رحم الآنية في إطلاق النص، والرغبة في الإقناع والتأثير في النفوس، وهذا ما أجده –مثلاً – في قول أبي الدرداء- رضي الله عنه- : (كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه)(1)، وكقول عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- : (لا أدركت أنا ولا أنت زماناً يتغاير الناس فيه على العلم كما يَتَغَايرون على الأزواج)(2) .

وتطلُّ علينا بعض الصور الضاربة في الشعرية، والتكثيف التي وصفها أحد الباحثين للأجناس النثرية الوجيزة في النثر القديم بقوله: (وقد تكون الصورة في الأجناس النثرية الوجيزة – أحياناً- ضاربةً في التجريد، موغلة في الخيال حتى لكأنها صنو للصورة الشعرية ...)(3) ومن هذا النزر اليسير قول الزبير بن العوام –رضي الله عنه- : (يكفينا من خَضْمِكُم القَضْم، ومن نصِّكم العَنق)(4)فالخضم هو الأكل بأقصى الأضراس، والقضم بأدناها(5)، والنصُّ هو أقصى سير الدابة، والعَنق هو ضربٌ من

---

(1) السابق:197/2.

(2) السابق: 211/3.

(3) الأجناس الوجيزة في النثر العربي "رسالة دكتوراه" :120.

(4) البيان والتبيين: 154/3.

(5) انظر: اللسان "خضم".

السير الهادئ(1)، والنَّص جاء في مقام الحثِّ على الزهد، والاكتفاء من الدنيا باليسير، فجاءت الصورة في تركيبين، كل واحد يحتاج إلى شيءٍ من التأمل، والمرمى من الصورة هو تصوير القدر المبتغى من الدنيا، والتأثير في وعظ المتلقين، فجعل دائرة التشبيه الأولى قائمة على الأكل، والأخرى على السير، فالمرتمي على دنياه كمن يأكل بنهمٍ، ويسير بسرعة، والمقبل على الآخرة، المنزوي عن الدنيا يكتفي من الدنيا بمقدر حاجته، فهو كمن يكتفي من أكله بما يسدُّ حاجته، غير متناهٍ إلى الشبع، وكمن يستفرغ للدنيا من طاقته مقدار السير الهادئ الذي لا يستخرج فيه من الدابة أقصى جهدها، ومفهوم المقابلة يولِّد صورة أخرى مركبة، ذلك أنَّ الزبير يبتغي القَضْم والنَّص للآخرة فهي موطن استفراغ الجهد، وبذل الوسع، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ومما استوقفني من الصور الكثيفة اللافتة قول عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– لأبي مريم الحنفي قاتل زيد بن الخطاب : (لا يُحِبُّكَ قلبي أبداً حتى تُحِبَّ الأرضُ الدمَ المسفوح)(2) فاستغراق حبِّ عمر لأخيه زيد، ومقابلة ذلك بذروة الكره لقاتله، جعل التعبير العادي لا يكفي لكشف خيوط الأحاسيس، ومَبلغ العواطف، فلاَذَ عمر إلى التصوير لتكثيف فكرته (الحب /البغض) فجعل الحبَّ مستحيلاً، كاستحالة امتصاص الأرض للدم المسفوح، ويبدو تباعد طرفي الصورة في ذهن المتلقي (بقاء المحبة + امتصاص الأرض للدم المسفوح=الاستحالة) كان من وراء تكشُّف الصورة

---

(1) انظر: السابق "قضم".

(2) البيان والتبيين: 376/1.

تدريجياً، وبحث المتلقي عن تجميع لقطاتها، ومن ثمَّ انبهاره بدقة عمر في إيصال مرامه، ودقة تصويره.

والصورة الحقيقية المتعامدة على توصيف المشاهد، وبراعة القائل في تكوين لقطات متحركة أمام المتلقي من دون استجلابٍ لأدوات التصوير المجازية ملحوظةٌ في تلك الأجناس، ولك أن تتأمل قول عمرو بن العاص – رضي الله عنه– في تصوير مشهدٍ من مجالس معاوية– رضي الله عنه– : (ما رأيت معاوية قطُّ متكئاً على يساره واضعاً إحدى رجليه على الأخرى، كاسراً إحدى عينيه، يقول للذي يكلِّمه: ياهَنَاه(1)، إلا رَحمتُ الذي يُكلِّمُه)(2) .

وعلى كل حال فقد كانت وظيفة الصورة في تلك الأجناس الوجيزة متجهة إلى التوضيح والتأثير في المتلقين، والرغبة في الترغيب والترهيب؛ ذلك أنَّ القيم الدينية والأخلاقية، وهيمنة النصح والتوجيه تستوجب لوناً من التصوير النائي عن الإبداع، والباحث عن الكشف والتوضيح والتأثير.

---

(1) أصلها : يا هن زيدت فيها الألف وهاء السكت، وهي بمعنى يا رجل .

(2) البيان والتبيين: 2/302- 303.

الخاتمة:

وبعد فإنَّ بحث اختيارات الجاحظ للأجناس النثرية الوجيزة للصحابة –رضوان الله عنهم– يُغرِي الباحثين بمزيدٍ من البحث والتنقيب في كتاب "البيان والتبيين" من جهة، وآثار الصحابة في كتب الأدب الأخرى من جهة أُخرى، فالطرفان –من وجهة نظري– تحتاج إلى مزيد عناية من الدارسين والباحثين عن الأدب الرصين .

إنَّ هذا العصر المكتسي بالسرعة في أنماط العيش المختلفة يلحُّ علينا أن نبحث في قطعٍ أدبية تتناسب والسرعة، ولا أنسب من تلك الأجناس الوجيزة، والقطع الأدبية القصيرة التي تنبض بالدلالات الفكرية، وتُمتِع بالقيم الفنية، وقيمة الإيجاز التي بحث عنها الجاحظ كثيراً، ورددها طويلاً في كتابه "البيان والتبيين" جعلته ينتقي أطايب مقولات الصحابة التي جاءت في قالب عبارة شاردة، أو محاورة خاطفة، أو جوابٍ مفحم، أو حكمة مُتداولة، لافتاً المتلقي إلى اكتظاظ دلالتها، وجمال سبكها، مع قيمتها الخُلُقية التهذيبية التي تقف مؤشراً على أهمية المضمون في العمل الأدبي.

ولا ريب فإنَّ انتقاء الجاحظ لتلك الأجناس الوجيزة للصحابة –رضوان الله عنهم– يدعونا إلى طرح السؤال ذاته عن أسباب اختيار غيره من الأدباء والنقاد لتلك الأجناس، ودائرة أوسع من هذا التساؤل تلحُّ بعد هذه الدراسة الموجزة، وهي لماذا

بقيت تلك الأجناس متناثرة في كتب التأريخ والأدب والوعظ، ولم تجد من يتصدى لها بالدرس والتحليل والجمع ؟! على الرغم من اقترابها من منهل الوحي، واحترام أغلب الرواة الناقلين لها، ونظرتهم لها نظرة تقديس واحترام، ثمَّ ما حملته من فكرٍ متحولٍ من ضلالة الشرك إلى نور الإسلام، إضافةً إلى أن الصحابة عاشوا أزهى عصور اللغة، أو ما سمَّاه بعضهم بـ "عصر الاستشهاد".

وإذا رجعت إلى كتاب "البيان والتبيين" الذي اتخذته عينة للبحث أجد أنَّ الجاحظ انتقى تلك الأجناس الوجيزة لأسرارٍ حاولت تَلَمُّسَها، واجتهد في التفتيش عنها، وكان من أبرزها: ما حملته تلك الأجناس من قيمٍ فكرية نبيلة، تدعو إلى التهذيب الخُلقي، وتبصير النفس، ومخاطبة الروح بمآل الإنسان، والتزهيد في الدنيا، والحفز للأُخرى، والقيم الفنية لم تكن غائبة عن تلك الأسباب؛ إذ كان الإيجاز، والتناص القرآني، وانتقاء الألفاظ، وتناثر المحسنات اللفظية معززة لجلب تلك النماذج، وتقديمها في صورة النماذج العالية للبيان .

إنَّ ما يَصْدُرُ عن الصحابة –رضوان الله عنهم– يقع في نفوس المتلقين موقعاً لا يكون لغيرهم؛ ذلك أنهم جيلٌ ارتبط ذكرهم بذكر النبي –صلى الله عليهم وسلم– فكان منهلهم قريباً من الوحي، وقدَّموا من التضحيات في سبيل نشر الدين ما لم يقدمه غيرهم، وأضفت النصوص القرآنية، ومن ثَمَّ النبوية على نصوصهم مسحة قدسية في نفوس المتلقين، فكان لأدبهم من الأثر ما ليس لغيره .

إنني لأرجو بهذا البحث أن أكون قدَّمت إضاءة في مشوار البحث الأدبي والنقدي في أدب الصحابة –رضوان الله عنهم– ولن تزال أرضه بكراً، تحتاج إلى أن يكتشفها الباحثون، وأن يُخْرِجوا منها أصدافاً نقدمها ضمن نماذج أدبنا الرصين.

والحمد لله أولاً وآخراً.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أبرز المصادر والمراجع

1. الأجناس الوجيزة في النثر العربي "رسالة دكتوراه، جامعة بنوبة التونسية 2004م-2005م
2. - الإعجاز والإيجاز،للثعالبي، دار صعب –بيروت، د.ت.
3. أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر، علي الطنطاوي، وناجي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط: 1428هـ /2007م.
4. أدب الصحراء :دراسة في مقطعات الأعراب النثرية، د.عبدالله بن سليم الرشيد، نشر: المؤلف، ط:1، 1427هـ/2006م.
5. أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية،ط:8، د.ت.
6. أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، تعليق محمود شاكر، دار المدني، جدة،ط:1، 1412هـ/1991م.
7. أدبية النص "محاولة لتأسيس منهج نقدي عربي" د.صلاح رزق، دار غريب-القاهرة، ط:2، 2001م .
8. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق : عبدالسلام هارون، دار الجيل، د.ت.

9. البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، د.علي علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث، 1416هـ/1996م .
10. تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية، د.محمود مقداد، دار الفكر المعاصر – بيروت، ط:1، 1413هـ/1993م.
11. تحليل الخطاب الشعري"إستراتيجية التناص" د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي–الدار البيضاء، ط:2–1986م.
12. تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين – بيروت، ط:8، 1989م.
13. التكرير بين المثير والتأثير، د.عز الدين علي السيد، عالم الكتب، ط2، 1407هـ/1986م.
14. التناص في مختارات من شعر الانتفاضة المباركة "مقالة" د.عبدالرحيم حمدان، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، المجلد الثالث، العدد:3، رمضان 1427هـ /أكتوبر 2006م .
15. جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، د.علي نجيب إبراهيم، دار كنعان للنشر والتوزيع، ط: 1، 2002م.
16. الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي (مشروع قراءة شعرية) د.صالح ابن رمضان، دار الفارابي، بيروت، ط:2: 2007م.
17. الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية–بيروت، ط:2 109هـ/1989م.

18. الصورة الفنية في النقد الشعري، عبدالقادر الرباعي، دار العلوم-الرياض، ط:1، 1405هـ.
19. علوم البلاغة، أحمد المراغي، د.ن، د.ت.
20. فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د.عزت السيد أحمد،منشورات اتحاد الكتاب العرب –دمشق، ط:1، 2005م.
21. الفن ومذاهبه في النثر العربي، د.شوقي ضيف، دار المعارف، ط:12، د.ت .
22. لسان العرب، لابن منظور، دار صادر – بيروت ، د.ت.
23. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط:1 1419هـ/1998م.
24. مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل-بيروت،1416هـ/1996م .
25. مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، مكتبة الرياض الحديثة، ط:5، 1393هـ/1973م.
26. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، تحقيق محمد جاد المولى، علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، د.ت.
27. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط:1411هـ
28. المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، د.فوزي السيد عبدربه، مكتبة الأنجلو المصرية،2005م .

29. مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، دار الكتب العلمية-بيروت، ط:1، 413هـ/1993م.

30. مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي، د.مصطفى عليان،دار المنارة-جدة،ط:1405،1هـ/1995م.

31. المناقب والمثالب، لأبي الوفاء ريحان بن عبدالواحد الخوارزمي، تحقيق إبراهيم الصالح، دار البشائر-دمشق، ط:1، 1420هـ/1999م.

32. النثر الفني بين العصر الجاهلي وصدر الإسلام دراسة فنية تحليلية، وفاء علي سليم، وكالة المطبوعات – الكويت، د.ت.

33. النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، المكتبة العصرية- بيروت، د.ت .

34. النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، الدكتور عبدالحكيم بلبع، مكتبة وهبة، ط:3 : 1395هـ - 1975م.

35. نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، د.حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية،ط:1: 1412هـ/2002م.

36. النص الغائب "تجليات التناص في الشعر العربي"، محمد عزام، نشر اتحاد الكتاب العربي دمشق، 2001م.

37. نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي، دار البشير-عمان، ط:1، 1411هـ/1990م .

38. النقد الأدبي، أحمد أمين، دار الكتاب العربي-بيروت، ط:4، 1387اهـ/1967م :64 ط:1، 1979م.

39. النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، نهضة مصر– القاهرة، د.ت.

40. نقد النثر، قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

41. هندسة القرآن "دراسة فكرية جديدة في تحليل النص " د.جمال البدري، الأوائل للنشر والتوزيع، ط:1، 2003م.

42. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق د.يوسف طويل، ود.مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية – بيروت:101/1.

فهرس الموضوعات

أولاً- مقدمات مهمة:..617

- البيان والتبيين "ديوان الأقوال البليغة"............................617
- أدب الصحابة النثري وغياب الدراسات الأدبية.....................623

ثانياً- مفهوم الأجناس النثرية الوجيزة...............................627

ثالثاً- من أسباب اختيار الجاحظ لأقوال الصحابة الوجيزة..............632

- مكانة منتج النص..632
- القيم الدينية والأخلاقية.......................................636
- بروز بعض القيم الفنية.......................................647

-الإيجاز والتكثيف..647

-الإيقاع والجرس...650

-التناص القرآني...654

– إيحاء

الألفاظ..658

– الصور الموضِّحة..660

- الخاتمة..

667

أبرز المصادر والمراجع...669

فهرس الموضوعات...674